بسم الله الرحمن الرحيم

المشاركة في الملتقى الدولي بعنوان:

السيرة النبوية في الكتابات الأدبية عند المستشرقين

بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية-قسنطينة (الجزائر).

يوم: 10/11- 03 - 2020 .

محور المشاركة: الأول : السيرة النبوية ومرجعيات القراءة

بمداخلة عنوانها:

الكتابة بين علماء السيرة النبوية والأدب والمستشرقين

(نظرة في المرجعيات والتقاطعات)

Writing between scholars of the Prophet's biography - literature and orientalists

(a look at references and intersections)

د.اليزيد بلعمش.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة «الجزائر»

el-yazid@hotmail.com

البريد المهني: y.belameche@univ-emir.dz

ملخص

وفكرة هذا البحث تقوم على محاولة تبين المرجعات والأسس التي تقوم عليها كتابة السيرة النبوية عند كل طائفة من الطوائف الثلاث: علماء السيرة النبوية، وعند الأدباء، وعند المستشرقين. تأتي أهمية هذا البحث من جهة أنه يؤصل لهذا الموضوع، ويعطي التصور العام الذي سيسير فيه موضوع معالجة الكتابة الأدبية للسيرة النبوية عند المستشرقين. بل وسيجيب هذا المقترح عن سؤال مهم مفاده: هل هناك كتابة أدبية بريئة للسيرة النبوية عند المستشرقين؟

Summary:**The idea of this research is based on an attempt to identify the references and foundations on which the writing of the Prophet's biography is based on each of the three sects: scholars of the Prophet's biography, writers, and orientalists. The importance of this research comes from the fact that it establishes this topic, and gives the general perception in which the subject of dealing with literary writing of the Prophet's biography will proceed among**

orientalists. This proposal will even answer an important question: Is there an innocent literary writing of the Prophet's biography among orientalists?

عناصر الموضوع: سيعالج الموضوع في النقاط الآتية:

1- تمهيد:

2- مرجعيات الكتابة في السيرة النبوية عند علماء الشريعة الإسلامية

3- مرجعيات الكتابة الأبية

4- مرجعيات الكتابة في السيرة النبوية عند المستشرقين.

5- خاتمة: تتضمن خلاصة للمقارنة بين المرجعات في أنواع الكتابة عند هؤلاء.

تمهيد:

الحديث عن منهجية الكتابة في أي موضوع إنما حديث عن الضوابط التي تضبط الموضوع وترسم حدوده، بحيث لا يتخلف عنه شيء ولا يدخل عليه من خارج شيء، فالمنهج هو الذي يميز الفنون بعضها عن بعض، لأنه مما لا شك فيه أن لكل فن منطقه ومصطلحاته، هيئته وأركانه.

ومعلوم أن الكتابة في السيرة النبوية يخضع لجملة من المرجعيات الأساسية بحكم أنها كتابة لها مستنداتها التي تحكمها، فهي على اعتبار تمثلها للحياة هي حياة نبي من أنبياء الله عليهم صلوات الله وسلامه، ليست كغيرها فلها خصوصيتها، وعلى اعتبارها علم، فهي تدخل ضمن منظومة من العلوم الشرعية التي لها خصوصياتها، فما هي خصوصيات الكتابة في السيرة النبوية بهذا الاعتبار؟

ومعلوم أيضا أن الكتابة الأدبية لها خصوصياتها التي تخرج النص من مجرد الغاية التواصلية العامة إلى الكتابة الأدبية التي تعرف بسياقاتها وخصوصياتها.

كما هو معلوم من جهة ثالثة أن كتابة المستشرقين في السيرة النبوية لها غاياتها وأهدافها التي قامت لأجلها، فهي مشدودة نحو هذه المرجعيات والأهداف.

من هنا جاءت الفكرة للكتابة في هذا الموضوع محاولين رصد المرجعيات التي تقوم عليها الكتابة في كل جهة من هذه الجهات الثلاث، ثم النظر ثانيا في المقارنة بين هذه المرجعات والآليات للوصول إلى نقاط الاتفاق أو التعارض بين هذه الأنواع من الكتابة.

1- مرجعيات الكتابة في السيرة النبوية: في الحقيقة عند البحث عن بعض المصادر والمراجع التي تتحدث عن مرجعيات الكتابة في السيرة النبوية –في حدود ما نعرفه– لا نجد مراجع تتناول هذه القضية تناولا يدل على تحديد مضبوط مفصول فيه، وإنما نجد محاولات تدل على أن هذا الأمر خاضع للعمل التطبيقي أكثر من العمل التنظيري التأصيلي، لبيان بعض هذه المرجعيات التي تتكئ عليها الكتابة في السيرة النبوية، لا بد من معرفة طبيعة السيرة النبوية نفسها.

السيرة النبوية هي:"دراسة حياة النبي ﷺ وأخباره وأخبار أصحابه على الجملة وبيان أخلاقه وصفاته وخصائصه ودلائل نبوته وأحوال عصره"[1]، ومعلوم أن حياة محمد بن عبد الله ﷺ ليست كحياة غيره من البشر، فهو النبي المرسل والمبعث من الله تعالى بالرسالة الخاتمة لجميع الرسائل والناسخة لها، ولهذا فسيرته ﷺ جمعت بين أمرين: بين أخبار وتشريع، أي بين تاريخ وسنة.

فالسيرة من حيث هي قصة وسرد وأخبار فهي تاريخ[2]، ومن حيث هي نقل لتفاصيل حياة النبي ﷺ وأقواله وأفعاله وتقريراته للاقتداء به فهي سنة، ولهذا فهي تخضع في كتابتها لمنطقين اثنين:

– منطق تاريخي تقتضي "العناية بترتيب الأحداث ترتيبا زمنيا وموضوعيا"[3] بحكم أنها تعنى بنقل للأخبار والقصص.

– ولمنطق آخر هو منطق التحقيق في الرواية من جهة فحصها وتطبيق قواعد المحدّثين عليها، والتي عرفت بعلم (المصطلح) لغرض الحكم عليها قبولاً ورداً، بحكم أنها تنقل لنا أحكاما تشريعية.

وإن المتتبع لمسيرة كتابة السيرة النبوية يجدها تتأرجح بين هذين المنطقين، فقد يغلب هذا تارة، ويغلب الآخر تارة أخرى، وقد تتساوى الكفتين في أحايين قليلة، يقول أكرم ضياء العمري: "تمتاز كتابات المؤرخين مثل الواقدي والبلاذري بالعناية بمراعاة ترتيب الأحداث ترتيبا زمنيا وموضوعيا، في حين تظهر التجزئة للأحداث في كتابات المحدِّثين الذين التزموا بقواعد الرواية وتمييز الأسانيد عن بعضها، ... ، وبعض المؤلفين جمع بين صفتي المحدث والمؤرخ مثل محمد ابن إسحاق وخليفة بن خياط

... ومحمد بن جرير الطبري ... فهؤلاء أفادوا من منهج المحدثين بالتزام سرد الأسانيد ومحاولة إكمال صورة الحادث عن طريق جمع الأسانيد أحيانا أو سرد الروايات التي تشكل وحدة موضوعية ..." [(4)].

ومن هذا المنطلق فقد عُني مجموعة من الباحثين باستخلاص مجموعة من النقاط؛ تمثل مرتكزات للكتابة في السيرة النبوية، نحاول أن نجملها في النقاط الآتية، لكن قبل نشير إلى أن هذه النقاط يمكن أن نقسمها قسمين، قسم متعلق بشروط واجب توفرها في الكتابة، وأخرى ترجع إلى الكاتب نفسه:

أ- ما يرجع إلى كيفية الكتابة:

1- الرجوع إلى المصادر التي تستقى منها السيرة النبوية: مصادر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرة ومتنوعة، وعلى كثرتها وتنوعها فهي فيما بينها درجات، وليس على مستوى واحد من الوثيقية، وأعلى هذه المصادر: هو القرآن الكريم، وميزة القرآن الكريم في هذا، من جهتين:

1- أنه كان ينزل مفرقا حسب الحوادث والمناسبات مما نجد فيه تفصيلا لما قد لا نجده في غيره.

2- أن القرآن الكريم فيه ربط عجيب بين سير الحدث وقصة الحدث وربطه بالعقيدة والإيمان والقضاء والقدر وما يجب أن يكون، وما لا ينبغي أن يكون، بخلاف كثير من كتب السيرة فنجدها تسرد عليك الأحداث سرداً، لكن إذا قرأتها من القرآن العظيم تجده يعقب عليها بتعقيبات تزن هذه الأحداث وتقومها.

وبعد القرآن الكريم تأتي الرجوع إلى كتب الحديث؛ وهي على أنواع أشهرها كتب المغازي والشمائل والدلائل ومنها أيضا ما اشترط الصحة منها ما لم يشترط فيعامل كل واحد بحسبه.

ثم يأتي بعد ذلك ما جمعه العلماء الأوائل من أمثال عروة بن الزبير(ت93هـ)، ومحمد بن مسلم الزهري (ت124هـ)، وموسى بن عقبة (ت141هـ)، وابن إسحاق (ت151هـ) ... وغيرهم ، وكذا ما دُوِّن في المصادر التاريخية العامة من الحوادث

والتراجم، وهذا النوع يحتاج إلى نقد وتمييز لمعرفة الصحيح من غيره قبل أن نأخذ الدرس التربوي والعِبْرة من الحدث.

فالكتابة في السيرة النبوية إنما هي متعلقة بحياة النبي ﷺ تكون الكتابة فيها عن أحداث محددة سلفا، إنها حكاية عن حياة النبي ﷺ ، لا عن حياة متخيلة أو مفترضة، ولهذا فالمصادر فيها محددة سلفا، وليس فيها اجتهاد في رسم الاحداث أو الشخصيات التي تمثلها.

2- التحري في نقل الأخبار: إذا بعد تحديد المصادر يأتي كاتب السيرة النبوية إلى مرتبة أخرى تتعلق بالتحري في الأخبار التي تتضمنها هذه المصادر، فليست كل هذه الأخبار مما يوثق فيها، فـ "المطلوب اعتماد الروايات الصحيحة وتقديمها ثم الحسنة ثم ما يعتضد من الضعيف لبناء الصورة التاريخية لأحداث المجتمع الإسلامي في عصر صدر الإسلام .... وعند التعارض يقدم الأقوى دائماً ... أما الروايات الضعيفة التي لا تقوى أو تعتضد فيمكن الإفادة منها في إكمال الفراغ الذي لا تسده الروايات الصحيحة والحسنة على ألا تتعلق بجانب عقدي أو شرعي، ... أما الروايات التاريخية المتعلقة بالعمران كتخطيط المدن وزيارة الأبنية وشق الترع ... أو المتعلقة بوصف ميادين القتال وأخبار المجاهدين الدالة على شجاعتهم وتضحيتهم فلا بأس من التساهل فيها"[(5)].

إذا فليس كل ما جاء في كتب السير والمغازي صحيح حتى وإن كان في كتاب سيرة ابن هشام، بل لا بد من اعتبار سند الخبر المنقول ومتنه. ودراسته على طريقة أهل الحديث[(6)].

ب- ما يرجع إلى الكاتب: أما ما يرجع إلى الكاتب فمجمل ما نجده عند الدارسين إشارة يمكن إرجاعه إلى أمرين، أمر متعلق بالمؤهل النفسي والثاني متعلق بالجانب المعرفي.

أ- المؤهل النفسي: أن يكون هذا الكاتب مقدرا لحق النبي ﷺ وأن يعرف له حرمته، فلا يكن غاليا فيه، رافعا له فوق منزلته، ولا غاضا من حقه نازعا عنه وصف النبوة التي خصه الله بها.

ب- أما بالنسبة **للمؤهل المعرفي:** فهو مركب من أمرين:

- أحدهما: يتعلق بالإسلام: وهو أن يكون الكاتب في سيرة النبي ﷺ على وعي بحقيقة الإسلام ومنهجه، مدركا لمقاصده، عارفا بأطره، لأن الكتابة في السيرة النبوية هي كتابة في الشريعة الإسلامية، فـ"هي التطبيق العملي لنصوص الوحي في كافة مناحي الحياة"[7].

- والآخر: متعلق بأداة قراءة هذه السيرة، وهي اللغة العربية، فالكاتب للسيرة النبوية ينبغي له أن يكون له فقه بأساليب العرب في مخاطباتها ومحاوراتها، لأنها اللغة التي تمثلت فيها هذه السيرة. ثم لا يهم بعد ذلك بأي لغة يكتبها.

هذه المرجعيات التي أشارنا إليها لخصها بعضهم حين أشار إلى أن دراسة السيرة النبوية يقوم على ثلاثة دوائر، وإن الافتقار إلى أي دائرة منها يلحق ضررا كبيرا بفهم السيرة النبوية ووضعها في مكانها، وهذه الدوائر الثلاثة، هي:

1- الايمان أو على الأقل احترام المصدر الغيبي لرسالة النبي محمد ﷺ وحقيقة الوحي الذي تقوم عليه.

2- اعتماد موقف موضوعي بغير حكم مسبق يتجاوز الاسقاطات التي من شأنها أن تعرقل عملية الفهم.

3- ضرورة الاحاطة جيدا بأدوات البحث العلمي التأريخي؛ بدء باللغة وجمع المادة والقدرة على النقد والموازنة[8]

إذا: فهذه أصول في كتابة السيرة النبوية، **ثم يبقى بعد ذلك الغرض هو الذي يتحكم في اتجاه الكتابة،** فهو خاص باختيار الكاتب وهدفه من كتابة السيرة، ولقد تنوعت الأغراض والمقاصد من كتابة السيرة النبوية، ولهذا إذا ما تأملنا مسيرة كتابتها، وجدنا أنه يمكن أن نصنفها لاتجاهات ومدارس متنوعة كالمدرسة التربوية واللغوية أو السياسية... وغيرها.

لست أريد هنا أن نحاكم هذه الاتجاهات إلى الأسس السابقة، لكن لبيان أن موضوع السيرة النبوية يحتمل أن يوجه إلى أغراض متعددة، وهذا أمر ينسجم فعلا

وطبيعة السيرة النبوية من جهة تنوع موضوعاتها، وثراء مناحيها، فإنها تلامس جميع جوانب الحياة ومشاغلها. مما يعني أنها **مجال مفتوح لاستثمارها في الكتابة في أغراض متنوعة بشرط أن تكون وفق الأطر والمرجعيات السابقة.** وهذا عن المرجعيات المتعلقة بالكتابة في السيرة النبوية، ليأتي بعدها الحديث عن :

2- مرجعيات الكتابة الأدبية في السير: الحديث عن أدبيات الكتابة الأدبية فيه نوع من الغموض والضبابية، والسبب في ذلك يرجع إلى أمرين:

1- تنوع الفنون الأدبية التي تطرق من الكتابة، ففيها: القصيدة والقصة والخطبة وال..... وغيرها من الأنواع الأدبية.

2- تنوع مجالات الحياة التي يدخلها الأدب، فليس هناك مجال منها إلا وهو موضوع الكتابة الأدبية، ولهذا فمرجعيات الكتابة فيها تنوعت بتنوع الموضوعات التي يكتب بها.

لكن على رغم من هذا التنوع فإن لها قدر من الاشتراك استحقت به أن تكون ضمن الكتابة الأدبية، وهذا القدر المشترك تمثل في كون **النص الأدبي نص عاطفي**، فالعاطفة في الأدب من عناصر الأساسية التي لا يمكن أن تتخلف عن أي نص أدبي، بل هي العنصر الأساس الذي **يجلب بقية الخصائص** التي تميز النص الأدبي؛ من **خيال وإبداع في التصوير وجزالة في اللفظ والعبارة وإثارة في النفوس** ... وغيرها من العناصر، يقول أحمد الشايب: "عنصر العاطفة الذي يعد في الأدب الدافع المباشر إلى القول وروحه، وهذا العنصر هام إلى درجة أنه احتاج غالبًا، لأجل أدائه إلى الخيال الذي هو **لغة العاطفة ووسيلة تصويرها** من ناحية الأديب، وبعثها في نفس القارئين، فالعاطفة في الأدب عنصر أسلوبي يُحسّ دون أن يشرح أو يعرض عرضًا مباشرًا صريحًا"(9).

ورغم اشتراك بين مختلف النصوص الأدبية في هذه الخصائص التي تجعل منه أدبا، إلا أن لكل نصوص من نصوص الأنواع الأدبية ما يميزه عن غيره، من جهة الشكل والهيكل العام الذي به يتميز، كما يتميز الشعر عن النثر، تتميز الأنواع الأدبية الأخرى عن بعضها البعض.

والذي يتقاطع من فنون الأدب في الكتابة مع كتابة السيرة النبوية (فن القصة)، ولهذا لا بد من الحديث عن الخطوات التي يبنى بها الفن القصصي عند الأديب ليتسنى لنا تحديد التقاطع الموجود بين القصة الأدبية والسيرة النبوية.

القصة في حقيقتها إنما هي استغلال لمظاهر الحياة وصورها وطبيعتها، ولهذا لا نجدها تخرج عما يعيشه الناس، لكن الذي يجعل منها قصة إنما هو قلم الأديب وذهنه، لأنه يعطيها نظرة خاصة وشأنا آخر، لأن "كاتب القصة يختلف عن كل إنسان في أنه ينظر إلى الأشياء الواقعة نظرة خاصة. فهو لا يقف منها عند السطح، ولكنه يتعمقها ويفرز عليها من أفكاره وخياله، ويجعل لها تكوينًا آخر وفلسفة أخرى، ثم هو يختزن كل ذلك في نفسه ليستغله في يوم من الأيام، وهو حين يعود إلى نفسه لكي يستمد من ذلك المخزون، فإنه لا يستمد منه اعتباطًا، ولكنه يستمد منه ما له أهمية خاصة"[10]،وهذه الخصوصة لا تتأتي من الحدث نفسه، بل الحدث قد يكون عاديا ليس فيه يلفت الانتباه "لكن القيمة تأتي من أن الكاتب قد تعمق هذه الحادثة، ونظر إليها من جوانبها المتعددة. وبعبارة مجملة نقول: قد أكسبها قيمة إنسانية خاصة"[11]؛ أي أن الكاتب قد اكسبها أو أضفى عليها جانبا معينا أخرجها به إلى الأدبية، وبهذا تخرج القصة من كونها أحداث إلى كونها عملا فنيا.

ويحاول إحسان عباس أن يفرق بين السيرة التاريخية والسيرة الأدبية: فذهب أولا إلى أن "السيرة التاريخية ظلت تمثل أقوى نوع من السير عند المسلمين، أما السيرة ذات الطابع الأدبي، فقد بقيت مهملة لم تعالجها الأقلام، وإن المرء ليؤسفه أن يمضي عن كتاب كبار من ذوي الإحساس الدقيق بالشخصيات والأحداث والتجارب، فلا يجد لهم أثراً واضحاً متميزاً في هذه الناحية"[12] من أمثال الجاحظ وغيره من الأدباء والسبب في ذلك أرجعه إلى أمرين:

1- تجزئة الأحداث وعدم ربطها أجزائها في وحدة كاملة.

2- ميلها عن الانصاف، وذلك بجعل موضوع السيرة غرضا لشيء ما، دون تركيزها على شخصية صاحب السيرة[13].

وفي ضوء هذا يعرض للمقارنة بين بعض المحاولات في العصر الحديث في كتابة السيرة كتابة أدبية، ومن أبين المحاولات ذات الطابع الأدبي في السيرة الحديثة، "حياة الرافعي" للعريان، وعبقريات العقاد، وما يلحق بها من سير للمؤلف نفسه، و"جبران" لميخائيل نعيمه؛ و "منصور الأندلس" لعلي أدهم[14].

فقد رأى أن " حياة الرافعي " للعريان فينقصه العنصر الهام الكبير الذي يجب أن تقوم عليه السيرة، وهو التمشي مع حركة النمو والتطور في البناء؛ فقد جمع العريان فيه الفصول عن الرافعي جمعاً؛ وميز وحدد، فلم يرسم للرافعي صورة متدرجة مكتملة[15].

أما بالنسبة لعبقريات العقاد أو ما كتبه على مثالها، ليست سيراً بالمعنى الدقيق، ولكنها تفسير لبعض مظاهر الشخصيات الكبيرة والأحداث والأقوال المتعلقة بها، على قاعدة شبيهة بالتحليل النفسي وليست هو، وإنما هي لباقة في العرض، ومهارة في اللمح والتفسير[16]. فهي ليست سيرا وإنما هي استعراض لقوة الذهن على التحليل.

أما ميخائيل نعيمة فقد نجح في سيرة جبران إلى حد ما، لأنه استوفى فيه عناصر السيرة الفنية ببراعة تتضاءل عندها اللمحات الذهنية التي يمضغها العقاد ... حيث اعتمد الصراحة في تصوير صديقه، وهو في صراع متطور مع الحياة، وعرض لجبران في ضعفه وقلقه، وكشف عن كثير من متناقضاته، كل ذلك في بناء فني جميل لا تشوبه إلا بعض المقدمات التي يتورط العقاد في مثلها إلى حد الإملال. ولكنه في أغلب فصول كتابه يجعلنا نعيش مع جبران ونحس به في صراعه مع الحياة إحساساً دقيقاً، مستعيناً بفهمه النفسي الذي يتغلغل إلى أعماق الأمور فيفسرها ويجلوها ويربط بين ظواهرها المتناقضة. وقد قدر لنعيمه أن يبرز الحقائق عارية دون أن يحاول الاعتذار أو يختفي وراء الروابط العاطفية، فجاء كتابه حياً خفاقاً بالحيوية، كاملاً في تدرجه ونموه. وفيه اكتمل للسيرة وجودها في الأدب العربي الحديث، من حيث الغاية والتطبيق. ولا شك في أن هذا اللون من السيرة كان جديداً على الناس في العالم[17].

أما (علي الأدهم) في كتابته لسيرة "منصور الأندلس" فإنها تتمتع بالبناء المتدرج وتدل على الفهم العميق لنفسية بطل السيرة وما يدور حوله من ملابسات، ولكنها هادئة بطيئة الحركة وينقصها الحماسة الكامنة في إخلاص نعيمه[18].

إذا كل هذه النماذج في التحليل تؤكد أن المرتكزات التي تقوم عليها كتابة السيرة كتابة أدبية هي ما أشرنا إليها سابقا: من ربط أجزاء السيرة في وحدة متكاملة، ومن صدق في نقل أحداث السيرة دون تطويعها أو تحريفها أو تحامل عليها، كل ذلك لغة نقية وبناء فني.

وبهذه الصورة وعلى هذا النحو، فلا تعارض بين مرجعيات الكتابة في السيرة النبوية ومرجعيات الكتابة الأدبية للسيرة عموما سواء أكانت السيرة في قالبها القصصي أو في قالبها الموضوعي، بما أنها تدور حول حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم وفهم معاني شخصيته وأحواله.

3- مرجعيات كتابة السيرة النبوية عند المستشرقين: لسنا هنا بصدد الحديث عن نشأة الحركة الاستشراقية ودوافعها وأغراض التي يعملون لأجلها، لأن هذه الأمور قد تحدثت عنها عددا من الكتب، وإنما حديثنا ينحسر في إطار بيان منهجهم في تعاملهم مع السيرة النبوية دراستهم لها، كما أشير إلى أننا لا نتحدث عمن أسلم فقد خلع ربقة الاستشراق من عنقه، وإنما نتحدث عن تيار الاستشراق الذي أنشأه الغرب وسيلة جديدة من الوسائل التي تحارب بها الشرق، محاربة فكرية وعقدية[19]، وصورة من صور العداء الجديد قصد تحطيم الاسلام وتشويهه، بتقديم صورة تفسد نقائه، وتصرف الناس عنه، وفي مقابل هذا كانت تمجد القيم الغربية ذات التوجهات المسيحية أو الالحادية، وقد كان ذلك بدرجات مختلفة في الغموض والوضوح، وفي الصراحة والخديعة،[20]. ومقارنة الدوافع الأخرى بهذا الدافع نجدها منزلتها منه بمنزلة الفرع من الأصل، فالدافع الديني هو أهم الدوافع التي نصب لها هؤلاء المستشرقون[21].

والحقيقة أن منهج المستشرقين في السيرة النبوية لا يختلف عن منهج حديثهم في عموم الدراسات الاسلامية، فقد ساروا في دراستها والكتابة فيها بمنهج التحريف

والتضليل، ف " كانت مناهج البحث الغربيّ (الاستشراقيّ) في السيرة ... أبحاثا تحمل اسم السيرة وتتحدث عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وتحلّل حقائق الرسالة، ولكنها– يقينا– تحمل وجها وملامح وقسمات مستمدة من عجينة أخرى غير مادّة السيرة، وروح أخرى غير روح النبوّة.. ومواصفات أخرى غير مواصفات الرسالة.

إن نتائجها تنحرف عن العلم لأنها تصدر عن الهوى، وتفقد القدرة على مُسَامَتَةِ [(مقابلة)] عصر الرسالة وشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، ونقل تأثيراتهما الجمالية بالمستوى العالي نفسه من التحقق التاريخي.. لأنها تسعى لأن تخضع حقائق السيرة لمقاييس عصر تنسخ كل ما هو جميل، وتزيّف كلّ ما هو أصيل، وتميل بالقيم المشعّة إلى أن تفقد إشعاعها وترتمي في الظلمة، أو تؤول إلى البشاعة!!" [(22)].

إن افتقاد المستشرق للنزاهة في التعامل مع الأخبار حرمته من فهم السيرة النبوية على وجهها الذي تفهم عليه، فقد كانت من منطلق قائم على الكراهية والحقد –في غالبها– متعمدة حينا، وغير متعمدة حينا آخر، فكان من نتيجة ذلك أنتشر الخوف من الاسلام ومن أهله، يقول المستشرق فالمونيسنيور كولي في كتابة (البحث عن الدين الحق): "الاسلام في القرن السابع للميلاد برز في الشرق عدو جديد ذلك هو الإسلام الذي أسس على القوة، وقام على أشد أنواع التعصب، لقد وضع محمد السيف في أيدي الذين اتبعوه، وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق ثم سمح لاتباعه بالفجور والسلب، ووعد الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات، وبعد قليل أصبحت آسيا الصغرى وإفريقيا وإسبانيا فريسة له، حتى إيطاليا هددها الخطر، تناول الاجتياح نصف فرنسا"[(23)]... وهكذا كانت منطلقاتهم.

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنه من خلال استعراض واقع حركة الاستشراق والإطلاع على مواقفهم العلنية من الإسلام، يتبن أن منهجهم في دراسة السيرة النبوية يقوم على ما يأتي[(24)]:

1– العمل بكل جهد لرد معطيات السيرة وتفاعلها إلى أصول غير إسلامية.

2- اسقاط الرؤى العلمانية وتأثيرات البيئة المعاصرة على أحداث السيرة.

3- التشكيك والمبالغة والنفي الكيفي والافتراض المتعمد.

4- التركيز على الشاذ والضعيف من الروايات

فواضح أن كل هذه الأسس المتبع في الكتابة، لا تسلم لنا أن نستوضح معالم الكتابة الأدبية للسيرة النبوية عند المستشرقين، وذلك لميلها عن الانصاف المطلوب في كتابة السيِّر الفنية، وخروجها لاعتبارات ذاتية، فصار المستشرق هو الصانع للحدث، لا المترجم له ترجمة أدبية، بل وصفها بأنها كتابات فكرية، ولها أبعاد حضارية ودينية وسياسية.

خاتمة:

وما يمكن أن نصل إليه في خاتمة هذه الأوراق أن طرق المستشرقين قد تنوعت في محاربة الإسلام وتشويه صورة النبي ﷺ، وكانت من طرقهم في ذلك محاولة صياغة سيرته ﷺ في أسلوب أدبي لبث الدسائس والتحريفات فيها، مما جعلت تلك الكتابات التي ادعوا فيها الأدبية أقرب إلى الفكرية.

---

(1)محمد بن صامل السلمي، السيرة النبوية أهميتها، أقسامها ومقاصد دراستها، دار ابن الجوزي، دط دت (ص8)

(2)أشار بعضهم إلى التفرقة بين التاريخ والسيرة، وأن السيرة ليس جزء من التاريخ، ومن هؤلاء: الأستاذ كولنجوود"Collingwood " ، و توينبي Toynbee على اعتبار أنها لا تملك القاعدة الحقيقية لتكون تاريخا، فهي أحداث بيولوجية إضافة إلى بعض العواطف، مما يسهل فصلها عن واقعها التي عاشت فيه، وهذا قول غريب يصعب فهمه لأننا إذا نظرنا من ناحية عملية وجدنا أن السيرة كانت تاريخاً في نشأتها وغايتها. يقول إحسان عباس: "كلما كانت السيرة تعرض للفرد في نطاق المجتمع، وتعرض أعماله متصلة بالأحداث العامة أو منعكسة منها أو متأثرة بها، فإن السيرة في هذا الوضع تحقق غاية تاريخية؛ وكلما كانت السيرة تجتزئ بالفرد، وتفصله عن مجتمعه، وتجعله الحقيقة الوحيدة الكبرى، وتنظر إلى كل ما يصدر عنه نظرة مستقلة، فإن صلتها بالتاريخ تكون واهية ضعيفة". **ينظر**:(ص10، 11) [إحسان عباس، فن السيرة، دار الثقافة بيروت – لبنان، ط2، 1900].

(3) **ينظر**: أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية، مكتبة العبيكان، ط3، 1418هـ (ج1، ص11).

(4) المرجع نفسه (ج1، ص11).

(5) المرجع نفسه (ج1، ص43).

(6) **ينظر:** محمد سرور بن نايف زين العابدين، دراسات في السيرة النبوية، دار الأرقم، ط2، 1408هـ (ص106 ومابعدها). **ينظر أيضا:** أكرم بن ضياء العمري، مرويات السيرة النبوية بين قواعد المحدثين وروايات الأخباريين، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، دت ، دط. **وينظر أيضا له:** في مقدمة كتاب: السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية. **ينظر أيضا:** عبد الرحمن بن علي السنيدي، منهجية التأليف في السيرة عند ابن كثير، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، دط، دت.

(7) محمد بن صامل السلمي، السيرة النبوية أهميتها، أقسامها ومقاصد دراستها، دار ابن الجوزي، دط دت (ص9)

(8)عماد الدين خليل، المستشرقون والسيرة النبوية، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع – دمشق، بيروت، ط1، 1426 (ص8–9)، نقلها عنه: رياض هاشم هادي، الحركة الاستشراقية دراسة تحليلية، دار الكتب العلمية– بيروت، ط1، 2015 (ص114).

(9) أحمد الشايب، الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية– مصر، ط12 ، 2003، (ص52).

(10) عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه – دراسة ونقد، دار الفكر العربي (ص110).

(11) المرجع نفسه (ص 110).

(12) إحسان عباس، فن السيرة (ص19، 20)

(13) ينظر: المرجع نفسه (من ص16 ما بعدها ...)

(14) ينظر: المرجع نفسه (بداية من ص60).

(15) ينظر: المرجع نفسه (ص60).

(16) ينظر: المرجع نفسه (ص67).

(17) ينظر: المرجع نفسه (ص69).

(18) ينظر: المرجع نفسه (ص72).

(19) ينظر: علي محمد جريشة ومحمد شريف الزيبق، أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، دار الاعتصام، ط3، 1399هـ (ص18).

(20) ينظر: محمد البهي، الفكر اللإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مكتبة وهبة–مصر، ط4 ، (ص39 وما بعدها).

(21) ينظر: رياض هاشم هادي، الحركة الاستشراقية دراسة تحليلية (من ص31 – 40) فقد أشار إلى أن الدرافع التي قامت لأجلها الحركة الاستشراقية هي: الدافع الديني: محاربة الاسلام . والدافع العلمي من جهة خدمتها لبعض العلوم الاسلامية، وهذا لغرض ضربه لا لغرض خدمته، والدافع الاقتصادي: وهذا لنهب خيرات العالم الاسلامي ولا يحصل ذلك إلا بتضليله. والدافع السياسي الاستعماري: وهذا للسيطرة عليه. فكل هذه الدوافع إنما تنبع من دافع ديني وتعود إليه.

(22) عماد الدين خليل، المستشرقون والسيرة النبوية، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع – دمشق، بيروت، ط1، 1426، (ص8).

(23) نقلا عن كتاب: محمد البهي، الفكر اللإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي (ص 517).

(24) ينظر: رياض هاشم هادي، الحركة الاستشراقية دراسة تحليلية (ص117–123). وينظر أيضا لتوسع أكثر: عماد الدين خليل، المستشرقون والسيرة النبوية، (ص23 وما بعدها).